الباب الثاني

قلب الشرق الأوسط

THE MIDEAST HEARTLAND

obeikandl.com

obeikandl.com

طرق ثلاثة إلى الشرق
THE THREE ROUTES TO THE EAST

من نتائج المغامرة العسكرية الاستعمارية للحروب الصليبية أنها ربطت أوروبا ذاتها في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر أكثر فأكثر بالنظام العالمي الذي كان سائداً آنذاك. لكننا لم نبحث حتى الآن في ذلك النظام التجاري المعقد الذي كان موجوداً والذي مر، على الأقل منذ القرن التاسع، بالقلب الجغرافي للنظام بصفته رأس جسر لشرقي البحر المتوسط الذي يحرس ثلاثة طرق تؤدي إلى المشرق (الشكل رقم ٥) وهي: الطريق الشمالي من القسطنطينية عبر آسيا الوسطى، والطريق الأوسط الذي يصل البحر المتوسط بالمحيط الهندي عبر بغداد والبصرة والخليج العربي، والطريق الجنوبي الذي يربط الإسكندرية والقاهرة ومجمع البحر الأحمر ببحر العرب ثم بالمحيط الهندي. ففي القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ازدادت أهمية هذه الطرق. والطريف في الأمر أن الحرب والسلام كليهما قرّب بين شركاء التجارة البعيدين ووطد الصلات بينهم. ففي منتصف القرن الثالث عشر، كانت الطرق الثلاثة قيد العمل — وللمرة الأولى منذ أن كانت روما تسيطر على البوابات المؤدية إلى الشرق.[١]

وبدا أن هذه الانطلاقة واعدة، فاقتصاديات العالم المنفصلة بدت وكأنها تلتئم وتتطور لتشكل نظاماً عالمياً يشد بعضه بعضاً. لكن ما كاد القرن الرابع عشر ينتصف،

حتى كانت أجزاء شاسعة قد دمرت تدميراً كاملاً، وهذا دليل مأساوي على ارتباط مصير كل جزء بمصير الباقي ارتباطاً وثيقاً لا ينفصل. وليس أدل على مدى تلاحم النظام العالمي بعضه ببعض من تأثر أجزائه كلها بأي ضرر يلحق بجزء معين منه.

وفي الباب الثاني سنبحث في العمليات التي أسهمت في إيجاد هذه الصلات، والأهم منها الأحداث التي أدت في النهاية إلى قطعها. ومع أن أحداث هذه الدراما وقعت أساساً في المنطقة التي أطلقنا عليها اسم "القلب" إلا أن خيط الحبكة فيها لم ينقطع عن الأحداث التي جرت في أماكن بعيدة أخرى تصل إلى الصين، وهي العنصر المحرك في النظام بأكمله كما سنرى فيما بعد.

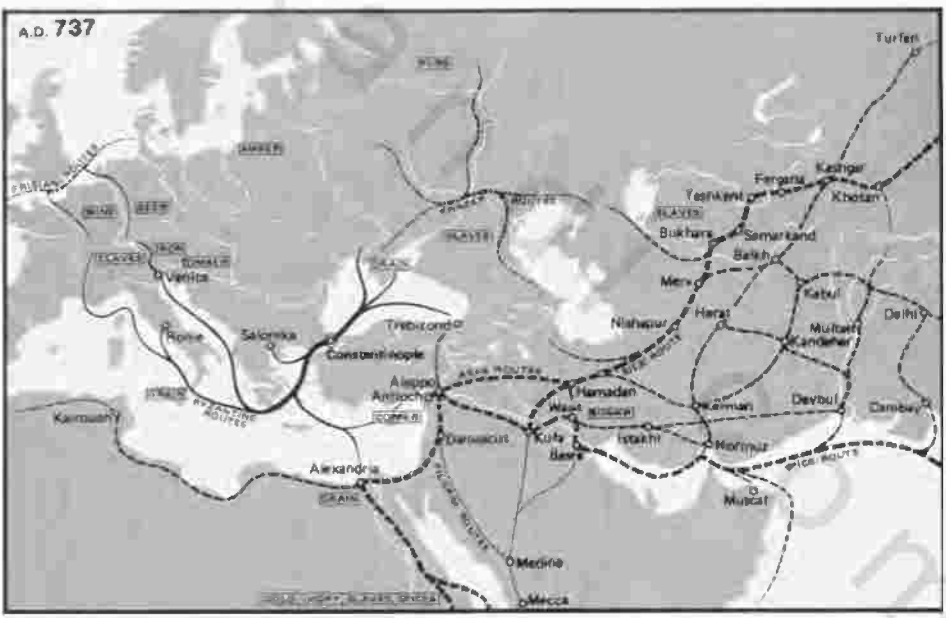

الشكل رقم (٥). شبكة الطرق وامتدادها من البحر الأبيض المتوسط عبر آسيا الوسطى باتجاه المحيط الهندي (اعتمادا على ماك إيفدي McEvedy).

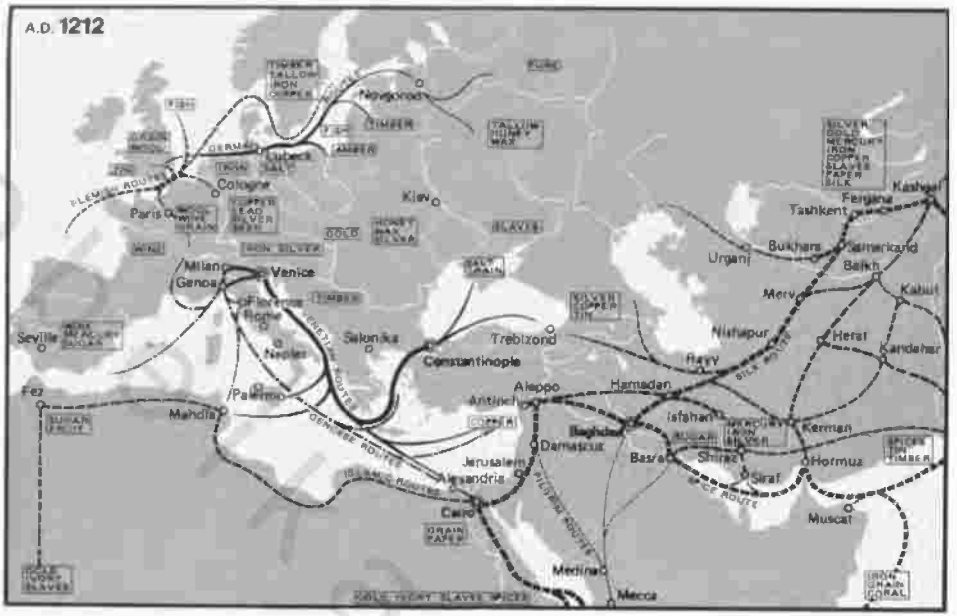

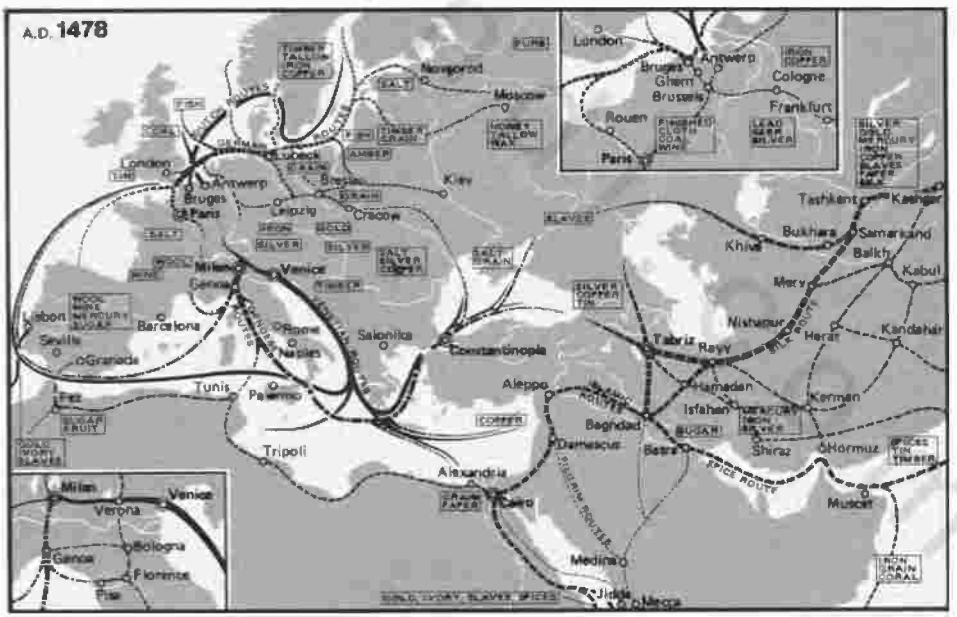

تابع الشكل رقم (٥).

الطريق الشمالي

في القرن الثالث عشر، لم يتعرض قلب المنطقة إلى الغزوات الصليبية من الغرب وحسب، بل تعرض أيضاً إلى غزوات القبائل الرحل من الشرق أيضاً. وفيما قدم الغربيون من البحر بفضل تنامي القوى البحرية لدول المدن الإيطالية، عبر الشرقيون آسيا الوسطى على صهوات جيادهم كعادتهم دائماً يحثونها على السرعة لتنفيذ استراتيجية كانت مقدمة للحروب المتنقلة الحديثة على حد وصف بعض المفكرين.

لم يكن المغول بقيادة جنكيز خان الذي لقب نفسه "بفاتح العالم" بأية حال من الأحوال أول القبائل الرحل التي اتجهت غربا.[٢] فجماعات الهون Hun بقيادة أتيلا Atilla انطلقت براً حتى وصلت إلى ألمانيا على أثر سقوط الإمبراطورية الرومانية (جروسيه Grousset، ١٩٣٩م، طبعة عام ١٩٨٤م). بعد ذلك ظهرت قبيلة الأتراك السلاجقة، الذين اتجهوا غرباً واستطاعوا في القرن الثاني عشر السيطرة على كامل العراق والهلال الخصيب ومصر، في حين استولت قبيلة أخرى هي الأتراك الخوارزميون، على ما وراء النهر Transoxiana. أما الآن فهناك تحالف جديد من القبائل الرحل يتبع طريقا مشابها يعد بنجاح أكبر. ففي عام ١٢٢٥م، وبعد أن ألحقت طلائع القوات المغولية الهزيمة بخوارزم، وصلت إلى هنغاريا، وأخذت تعد العدة لغزو أوروبا (الشكل رقم ٦).

لكن أوروبا لم تكن هدف المغول الوحيد ولا حتى الرئيس. فقد كانت جائزة الصين بثرواتها الهائلة هي المطلوبة. وهكذا أدار جنكيز خان ظهره إلى أوروبا فجأة ليركز انتباهه على الشرق. بعد ذلك بسنتين، أي في عام ١٢٢٧م، لقي فاتح العالم حتفه إثر إصابته بداء عضال في أثناء حملته على الصين.[٣] وتوقفت الحملة مؤقتا ريثما

يتم الاتفاق على من يخلفه. أما الإمبراطورية الفتية التي جمع أجزائها، ولم يتمكن من إخضاعها تماما، فقسمت بين أولاده، حيث عهد إلى كل واحد منهم بإخضاع منطقة مختلفة، فكلف ابنه جوشي Joshi (الذي أدى موته السابق إلى ترك هذه المهمة إلى ابنه باتو Batu) منطقة روسيا وأوروبا الشرقية؛ كما عهد إلى شاغاتاي Chaghatai بفتح بلاد فارس والعراق وبقية العالم الإسلامي. وجريا على الأعراف المغولية، عهد إلى أصغر أبنائه طولوي Tolui بأسهل مهمة وهي حكم بلاد المغول، في حين أصبح أوغوداي Ogodei، خليفته الحقيقي الذي حمل لقب خان، الأول على أقرانه.

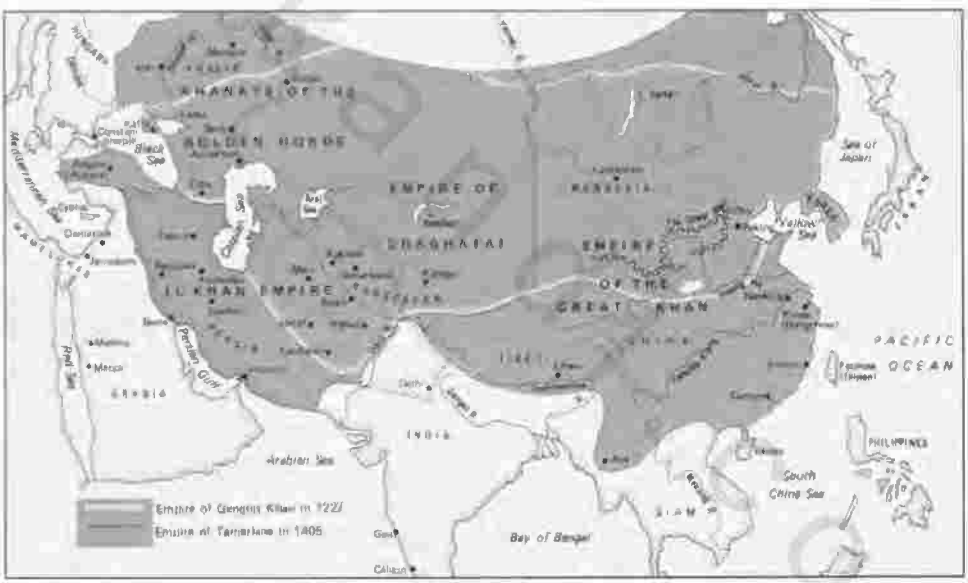

الشكل رقم (٦). توسع إمبراطورية المغول وتفككها التدريجي.

واستؤنفت الحملات بعد الاتفاق على خليفة جنكيز خان. وفي عام ١٢٤١م كانت جيوش باتو (القبيلة الذهبية)[٤] قد أكملت فتوحاتها في جنوب روسيا، وبولندا، وهنغاريا تاركة وراءها الموت والخراب. وسرت أخبار مختلفة في جميع أنحاء أوروبا عن

قوة المغول المخيفة واستعدادهم لمزيد من الفتوحات. كانت طلائع قوات باتو قد دخلت النمسا استعدادا لشن هجوم كاسح، وفي عام ١٢٤٢م اتخذت مواقعها على بعد أميال فقط من فيينا (دي راشفيلتز de Rachewiltz ١٩٧١م: ص ص ٧٧-٨١). أما في الجنوب، فكان قائد "القبيلة البيضاء" يشن هجمات مماثلة على أراضي المسلمين، وبدا أن خلفاء جنكيز خان على وشك تحقيق أطماعه أخيراً، على الأقل في المناطق الجنوبية.

ومرة أخرى، نجا العالمان الإسلامي والمسيحي بمعجزة. فحين وصل نبأ موت أوغوداي (بعضهم يقول من تأثير إفراطه في شرب خمر حليب الفرس، وهو المشروب المسكر عند المغول) إلى القادة العسكريين في الميدان، تركوا جزءاً صغيراً من جنودهم وراءهم وأسرعوا عائدين إلى عاصمة المغول قاراقورم Karakourum للاشتراك في اختيار الخان الجديد. لكن هذا الانتخاب لم يكن حاسما، ولم يشغل المنصب الذي أصبح شاغراً على أثر وفاة مؤسس الأسرة الحاكمة حتى انتخاب عام ١٢٥١م حين انتخب مونجكه Mongke ليكون الخان الأكبر الرابع.

وعلى الرغم من عدم تعرض أوروبا الغربية لأي خطر محدق مرة أخرى، إلا أن آسيا الوسطى بأكملها وأجزاء من الشرق الأوسط خضعت في عقد من الزمن إلى سيطرة المغول. فقد اجتاح هولاكو Hulego شقيق مونجكه، بغداد عام ١٢٥٨م وأسس إمبراطورية الخان (المغول) في بلاد فارس والعراق؛ ولم يستطع المماليك صده عن دمشق بعد ذلك بسنة من الزمن إلا بصعوبة بالغة. أما كوبلاي خان، شقيق مونجكه وخليفته من بعده، فقد بسط هيمنته على شمال الصين. وبعد ذلك بعشرين سنة (١٢٨٠م) خضع جنوب السنغ أيضاً إلى حكم المغول فيما عرف بأسرة يوان.

وشهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر دخول أوروبا الغربية إلى عالم الشرق الأقصى للمرة الأولى، حين أقامت أول اتصالاتها مع الوسطاء المغول الذين وحدوا تحت نظام واحد منطقة كانت من قبل متفرقة لا يدخلها أحد إلا بشق الأنفس

وبعد رحلة محفوفة بالمخاطر. (كانت القوافل التي تجلب الأقمشة الآسيوية النفيسة إلى روما قد هجرت طريق الحرير القديم، ولم يعد يسلكه بين فينة وأخرى سوى بضع قوافل يقودها تجار مسلمون أو يهود). في بداية الأمر، أطلق الأوروبيون العنان لأحلامهم بتشكيل حلف مع المغول رغم قلة معرفتهم بهم. فكل ما كان الأوروبيون يعرفونه عن المغول في ذلك الوقت أنهم ليسوا مسلمين. وإذا ما أخذنا في اعتبارنا الهزائم التي تعرض لها الصليبيون وهم يحاولون التشبث بمعاقلهم التي ما فتئت تنكمش شيئاً فشيئاً في الأراضي المقدسة (فقد تعرض الصليبيون إلى كارثة فظيعة إثر حملتهم الفاشلة على مصر عام ١٢٥٠م بقيادة سنت لويس بعد أن استعاد صلاح الدين سورية وفلسطين عام ١١٦٩م) يبدو لنا أن من المنطقي بالنسبة إليهم — مع أن الأمر يبدو لنا شبه مستحيل الآن — أن يحاولوا عقد تحالف بين الشرق والغرب ضد الإمبراطوريات الإسلامية الواقعة بينهما.

وهكذا شهد النصف الثاني من القرن الثالث عشر سلسلة من البعثات البابوية إلى المغول، وبعثات تجارية ربما كانت الأهم على المدى البعيد — قام بها تجار من البندقية (وأشهرهم ماركو بولو) ومن جنوا (كان لها أثر كبير مع أنها لم تحظ بكثير من التدوين) تمكنوا من الوصول إلى كاثاي Cathay وهي الطرف الشرقي من العالم المعروف آنذاك. وفي بداية القرن الرابع عشر كانت في خنباليك (بكين) بعثة كاثوليكية تبشيرية لكنها سرعان ما اختفت بعد تبخر الآمال واضمحلال الصلات.

لم يؤد التقسيم الإداري لإمبراطورية جنكيز خان عقب موته بوقت قصير إلى تجزئتها. وحتى بعد إعادة توزيع الأقاليم إثر موت أوغوداي ومونجكه كانت الوحدة كافية لجعل كل حاكم من حكام الأقاليم يحترم التعهد بسلامة العبور الذي يمنحه حاكم آخر. أما بيركه Berke الخان الثالث في القبيلة الذهبية، فقد بسط سيطرته على جنوب روسيا وشرقي الأناضول، وتمكن كل خان من هؤلاء بزعامة هولاكو من السيطرة

على بلاد فارس والعراق وأجزاء من شمال الهند وباكستان وأفغانستان ؛ في حين بسط كوبلاي – وهو الخان الأكبر الخامس منذ عام ١٢٦٠م، سيطرته بسرعة على سائر الصين. وهكذا سهلت هذه العوامل مجتمعة ممارسة التجارة والدبلوماسية في آن معاً.

وعلى الرغم من وحدة الثقافة والولاء التي ألفت بين هذه الجماعات الفرعية أصلا إلا أنها أصبحت بعد امتصاصها في أقاليمها المحتلة أكثر تنوعاً، وازدادت المشاحنات فيما بينها كما كان متوقعاً. ففي بعض الأقاليم (كتلك التي كانت خاضعة للقبيلة الذهبية، وللخانات فيما بعد) اعتنق الحكام المغول الدين الإسلامي مما قضى على كل أمل للصليبيين في التحالف معهم ؛ أما في الأقاليم الأخرى فقد تشرب المغول الثقافة الصينية واعتنقوا الديانة البوذية. ومع تعاقب الحكام الواحد تلو الآخر، تجزأت الإمبراطورية التي كانت موحدة فيما مضى وأصبحت فئات متناحرة يقاتل بعضها بعضاً. وهكذا أطفأت هذه الصراعات جذوة الأمل في إيجاد طريق عظيم يعبر آسيا الوسطى بدلاً من المحيط الهندي.

وفي الثلث الثاني من القرن الرابع عشر، دب الوهن في أوصال المغول، وتحولت قوتهم إلى ضعف بسبب تفشي الأوبئة وحركات العصيان. وهذه العوامل زادت مشكلات التفتت، وانتهى الأمر بالقضاء على هذا الطريق الملتف حول الأراضي العربية الداخلية. وما كاد القرن الرابع عشر أن ينتهي، حتى حاول تيمورلنك تكرار الانتصارات الخاطفة التي حققها أجداه من خلال إعادة توحيد آسيا الوسطى، لكن هذه الفتوحات السريعة لم تكن دليلاً على قوة تيمورلنك بقدر ما كانت دليلا على ضعف دول آسيا الوسطى، لذلك فإن حملاته التي جلبت الموت والدمار عبر أبواب دمشق، كانت إيذاناً بنهايتها. وهكذا تحول المغول من بداية واعدة بوصفهم طلائع التوسع في النظام العالمي في القرن الثالث عشر إلى أدوات لقطع الطريق الشمالي.

الطريق الوسط

تأثر الطريق الأوسط، مثله مثل الطريق الشمالي، لوقوعه بين فكي الكماشة التي شكلتها جيوش الصليبيين والمغول. فهذا الطريق الذي يبدأ من السواحل السورية والفلسطينية على البحر المتوسط يعبر الصحراء الصغيرة ثم سهول ما بين النهرين إلى بغداد قبل انعطافه ليتبع البديل البري أو البحري. أما الطريق البري فيعبر بلاد فارس إلى تبريز ومنها ينعطف نحو الجنوب الشرقي وصولاً إلى شمال الهند (التي كانت خاضعة لسلطنة دلهي المسلمة في منتصف القرن الثالث عشر) أو نحو الشرق إلى سمرقند، ومنها إلى الصين مروراً بالصحراء. أما الطريق البحري فكان هو الأهم على الدوام، حيث كانت البضائع تنتقل بمحاذاة نهر دجلة إلى الخليج العربي ثم تنتقل من ميناء البصرة الذي أسسه العرب إلى إمارات التجارة مثل عمان وصيراف وهرمز أو قيس التي كانت تحرس الصلة بين الخليج والمحيط الهندي. وكان هذا الطريق من الطرق الرئيسة حتى قبل العصر الإسلامي، لكنه انتعش في القرون الأولى من التوسع الإسلامي، حين كانت بغداد في مقدمة المراكز الإسلامية في ميادين التجارة والثقافة والدين.

تأسست بغداد سنة ٧٥٠م لتكون عاصمة الخلافة العباسية، حين كان الخليفة يحظى بولاء أغلبية العالم الإسلامي، ولتكون المركز التجاري والفكري بأبهى صوره للمناطق المحيطة بها شرقاً وغرباً، حتى أصبحت بين القرنين الثامن والعاشر مدينة عالمية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وقد وصف البحارة والجغرافيون والعلماء المسلمون الطريق البحري بين بغداد والشرق الأقصى بأدق التفاصيل. فمعرفة العرب والفرس بالشرق مدونة في مخطوطات كلاسيكية لا بد لنا من الرجوع إليها حتى نفهم صلات الاقتصاد العالمي التي تكمن وراء ازدهاره وازدهار حراسه في الخليج. وحتى بعد أن أوجد الصليبيون موطئ قدم لهم على سواحل البحر المتوسط، استمرت هذه التجارة ولم يستفد الأوروبيون إلا من السيطرة على الموانئ الواقعة في أقصى الغرب.

ومع ذلك أقدم الصليبيون والمغول على تدمير الطريق العابر لبغداد. ففي سنة ١٢٥٨م، حاصرت جحافل هولاكو ومونجكه أخيه الأصغر بغداد واجتاحتها ونهبت ما فيها وقضت على آخر معالم سماتها المركزية، وقتلت أعلى الرموز الإسلامية وهو الخليفة العباسي، وحل الدمار بالمدينة، وأصبح العراق يحكم من بلاد فارس. وكما حدث في القرن الخامس، حين انعزلت بلاد فارس مؤقتا تحت حكم الساسانيين عن النظام العالمي، وانقطعت بذلك الصلة بين الخليج والمحيط الهندي، فإن تأسيس حكم أباطرة (الخانات) المغول أعاق مبدئياً مرور التجارة عبر الطريق الأوسط، لكنه لم يقض عليها.

وجاءت الضربة القاصمة لهذا الطريق إثر استعادة المماليك سيطرتهم على الساحل السوري من أيدي الصليبيين. فحين تمكنت مصر في عهد المماليك من طرد فلول الصليبيين بشكل نهائي عام ١٢٩٢م، استولت على كل المدن الواقعة على الساحل السوري، مما أدى عملياً إلى إغلاق المحطة الغربية من الطريق.[٥] وهكذا اتجه التجار الأوروبيون شمالاً نحو أرمينيا الصغرى أو إلى جزر البحر المتوسط لمتابعة تجارتهم، لكن فلسطين لعبت دوراً ثانوياً بشكل واضح في هذه الترتيبات الجديدة. ومن ذلك الحين، أصبحت سورية وفلسطين تحكمان من مصر التي لم تكن على استعداد للتخلي عن ميزتها المنافسة إلى إقليم تابع لها. ومع أن الزراعة في سورية وفلسطين استعادت عافيتها، ومع أن الإنتاج الزراعي فيهما وهو القطن بالدرجة الأولى — ظل يباع في أوروبا، إلا أن القاعدة الصناعية والتجارية التي كانت تدر أرباحاً هائلة في الماضي، لم تعد إلى سابق ازدهارها على الإطلاق.

ومع تراجع الطريق الأوسط نحو الشرق، انتهت المنافسة المستحكمة بين طريق الخليج العربي وطريق البحر الأحمر البديل، إذ انتقلت السيطرة إلى الثاني على مدى قرون عدة. وهذا الانتقال إلى الجنوب أعاد تشكيل النظام العالمي الذي دام حتى القرنين

الرابع عشر والخامس عشر، وانتقل في نهاية المطاف إلى التمركز حول أوروبا إثر نجاح البرتغاليين في الدوران حول إفريقيا.

الطريق الجنوبي

كانت دولة المماليك التي تأسست في مصر بين ١٢٥٠ و ١٢٦٠م نتيجة مباشرة للتهديد المزدوج الذي شكله الصليبيون والمغول للمناطق الداخلية المهمة من الشرق الأوسط. صحيح أن الحاكم المغولي رفض الاستجابة إلى دعوة البابا الساذجة بالتحالف معه ضد المسلمين، ورد عليه بطلب الخضوع إليه، لكن الوضع الراهن على الأرض فرض على العرب والترك القتال على الجبهتين كليهما. فالمجتمع الصناعي والتجاري في مصر الذي كان قد غامر بالتوسع شرقاً ليربط بين البحر المتوسط وبحر الصين في القرون الأولى من العصر الإسلامي اضطر إلى التوجه نحو الأمور العسكرية بشكل تدريجي نظراً للتهديد الصليبي – المغولي المشترك الذي كان يتعرض إليه. صحيح أن هذا التحول نحو الدولة العسكرية سمح لمصر وسورية باستعادة السيادة على أراضيهما والاحتفاظ بها فيما بعد، لكنه حدث على حساب التطور الاقتصادي والانتعاش التجاري.

في القرن الثاني عشر أسست القوات الكردية نظاماً أولياً يقوم على منظمة عسكرية إقطاعية، وقد تمكنت هذه القوات بقيادة صلاح الدين الأيوبي من دحر الصليبيين من مصر وطردهم من العديد من معاقلهم في فلسطين. وقد حل الأيوبيون محل الفاطميين الذين اشتهروا بقوتهم البحرية وصناعاتهم المتطورة وتجارتهم المزدهرة مع الغرب. لكن قوة الفاطميين التجارية لم تجدهم نفعاً في الدفاع عن عاصمتهم القاهرة – أي الفسطاط – ضد الغزاة الصليبيين، وكان لا بد من تدخل القوات الكردية لإنقاذ القاهرة. وقد أسست هذه القوات الدولة الأيوبية (نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي الذي حكم مصر وسورية حتى منصف القرن الثالث عشر). فبين ١٢٥٠ و١٢٦٠م، تمكن الجنود المماليك في آخر الأمر من تنصيب واحد منهم سلطاناً على

الدولة بعد أن ازداد الاعتماد عليهم في الدفاع عن الوطن، وكان ذلك فاتحة عهد سلطنة المماليك،[٦] التي حظيت بمؤازرة القوات ذاتها التي دفعت بها إلى السلطة.

بعد خراب بغداد، أصبحت القاهرة أهم عواصم العالم الإسلامي، وهي حقيقة تؤكدها إعادة تأسيس الخلافة في تلك المدينة، وأصبح بيبرس أول سلطان شرعي من المماليك يحكم مصر. وبعد انتصاره على قوات المغول في معركة عين جالوت في فلسطين عام ١٢٦٠م، اكتسب بيبرس مكانة لا ينازعه فيها أحد، وقد عزز مكانته هذه فيما بعد بسلسلة من الانتصارات المماثلة على الصليبيين. وقد حالفه الحظ في الحالة الأولى على الأقل حين أنقذ موت مونجكه المسلمين عام ١٢٥٩م، مثلما أنقذ موت أوغوداي أوروبا عام ١٢٤١م. فحين سمع هولاكو بموت مونجكه، وبما يمكن أن يتبعه من صراع على السلطة، رجع إلى بلاد فارس بعد أن كان يحقق النجاح في إخضاع المناطق الداخلية من سورية، وترك وراءه قوة صغيرة سهل على المماليك إلحاق الهزيمة بها في عين جالوت. ويبسط راشفيلتز(١٩٧١م: ص ١٤٨) الأمر قائلاً:

> من النتائج المباشرة للمعركة [ويقصد معركة عين جالوت عام ١٢٦٠م] استعادة الأتراك حلب ودمشق وصعود نجم بيبرس (١٢٦٠م: ص ٧٧) ... المؤسس الحقيقي لإمبراطورية المماليك ... ولما استتب له الأمر في مصر، أصبح همه الأكبر بسط سلطانه على سورية وفلسطين، مع إبعاد المغول ... وفي أقل من عشر سنوات، نجح في طرد الفرنجة من قيصرية وأنطاكية ومن قلعة الحصن...

لكن العدواة بين المماليك والمغول لم تكن عداوة مطلقة. فلكي يتمكن بيبرس من استعادة سورية، عقد تحالفاً مع بيركه، الحاكم الثالث في القبيلة الذهبية، وأول حاكم مغولي يعتنق الإسلام.[٧]

أدى خروج الدول الصليبية من ساحل سورية وفلسطين إلى خروج التجار الأوروبيين إلى جزر البحر المتوسط، وبالأخص كريت وقبرص. ومعنى هذا من الناحية العملية أنهم استطاعوا الوصول إلى طريقين نحو آسيا: الأول بري من البحر الأسود،

والثاني إلى المحيط الهندي مروراً بمصر. وكان هذا الطريق، رغم طوله، هو الطريق المفضل. فمن يسيطر على الطريق إلى آسيا يسيطر أيضاً على التجارة في أوروبا التي كانت آنذاك تشهد تراجعاً مؤقتاً؛ وكانت مصر هي القوة المسيطرة فيما تبقى من القرن السادس عشر.

أما الطريق الجنوبي عبر البحر الأحمر فغدا الخيط الوحيد الذي يربط المساحتين المائيتين اللتين كانتا تشكلان محور العالم المعروف آنذاك. ونتيجة لذلك، ازدهرت القاهرة "أم الدنيا"، كما كانت تلقب في ذلك الأوان، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر، بعد أن نفضت عن أكتافها ما علق بها من الأوبئة وصمدت أمام عمليات السلب والنهب التي ارتكبتها طبقة منغلقة من العسكريين.

ومن المعروف أن الدول البحرية الإيطالية لعبت دوراً حاسماً في ربط مصر بالأسواق الأوروبية. لكن ما هو غير معروف تماماً أن إيطاليا قدمت خدمة جليلة أخرى إلى المماليك حين مكنتهم من الوصول إلى الموانئ المصرية حتى في أوج الصراع بين المسلمين والمسيحيين. فقد كانت الدول البحرية الإيطالية هي التي ضمنت تزويد حكام مصر من المماليك بأعداد ثابتة من المرشحين الجدد للانضمام إلى قواتهم العسكرية. فمقابل احتفاظهم بحقوق التجارة في مصر تولى الإيطاليون تزويد تلك المؤسسة الفريدة بالقوى البشرية اللازمة للإبقاء على قوتها لأنها تحظر توارث المناصب الإقطاعية أو السياسية. ومن المفارقات آنذاك، أن جمعيات التجارة الإيطالية مدت يد العون إلى الدولة التي حالت بينها وبين الاتصال المباشر مع الشرق وفرضت رسوماً باهظة على البضائع العابرة.

في الباب الثاني سنبحث في التغيرات المهمة في نشوء النظام العالمي في القرن الثالث عشر وسقوطه. وفي الفصل الخامس سنبين بالتفصيل توحيد العالم المغولي وتفككه والمضامين التي حملها بالنسبة إلى الطريق الشمالي. أما الفصل السادس

فيتناول انحدار النظام الفرعي الذي يمر ببغداد والخليج العربي رغم مركزه المهم فيما مضى، في حين أن الفصل السابع يتابع المركزية المتزايدة لخط إيطاليا - مصر - البحر الأحمر. كما نبحث في الباب الثالث نظام المحيط الهندي الذي كان ذلك الخط بوابته.

الهوامش
Notes

١- للاطلاع على وصف للنظام السابق. انظر لووي Loewe (١٩٧١م: ص ص ١٦٦-١٧٠)، تشارلزورث Charlesworth (١٩٢٤م) وورمينجتون Warmington (١٩٢٨م). كما أن لومبارد (١٩٧٥م) وهوجسون Hodgson (١٩٧٤م: وبالأخص ص ص ٣٣٠-٣٣٥) يطرحان حججا قوية تدعم القول إن الشرق الأوسط كان يشكل مركز "النظام العالمي" في القرن الثالث عشر، مع أن كليهما لا يستخدم هذا المصطلح.

٢- ولا للاتجاه شرقا، وهي الجهة المألوفة. ويتتبع بارفيلد Barfield (١٩٨٩م) ثلاث دوائر من العلاقات بين الصين وشعوب السهول الآسيوية الداخلية بين ٢٠٩ ق.م. والقرن العشرين. ويفترض أن هناك علاقة متبادلة إيجابية بين صين قوية وإمبراطوريات قوية في السهول. ومن اللافت للنظر أن الاستثناء الوحيد لهذا النمط حدث في القرن الثالث عشر، وهي المرة الوحيدة في التاريخ التي تحكم فيها القبائل الرحل في آسيا الوسطى الصين. هذا الوضع الاستثنائي يساعد في فهم صعود النظام العالمي في تلك الفترة، في حين أن الرجوع عنه في فترة ما بعد يوآن يسهم جزئيا في تفسير أسباب انهيار النظام في أواخر القرن عشر.

٣- لقد كان الحظ حليفنا إذ وصلنا العديد من الوثائق الأولية من القرن الثالث عشر على الرغم من أن المغول لم نكن لديهم لغة مكتوبة قبل تدوين لغتهم الشفوية بالحروف الأوغرية. هناك قبل كل شيء مجموعة "النصوص التاريخية" التي تعرف

"*بالتاريخ السري للمغول* *The Secret History of the Mongols*" والتي رغم أنها بدأت في التجمع منذ عام ١٢٤١م، تبدو أنها تعود إلى ١٢٥١-١٢٥٢م (بويل Boyle، ١٩٦٢م، طبعة بويل ١٩٧٧م: ص ص ١٣٦-١٣٧). ولم يعثر على النصوص المكتوبة بالأوغرية مطلقا. لكن هناك نسخة من هذا العمل بالألمانية من ترجمة صينية قديمة (هانيش Haenisch ١٩٤١م). وتضم الترجمة الإنجليزية لكتاب سبولر Spuler *تاريخ المغول* *History of the Mongols* (١٩٧٢م) كثيراً من النصوص من هذه الوثيقة. وقد قام كليفز F. W. Cleaves بترجمة الجزء الأول من النص إلى الإنجليزية.

ويعالج *التاريخ السري للمغول* حياة جنكيز خان وخلفائه الذين تعاقبوا على الحكم من بعده، لكن في شكل أقرب إلى الأسطورة الآيسلندية منها إلى ما نسميه "تاريخا". فالسطور الأولى من سلالة جنكيز خان تعطينا فكرة عن النص: "كان هناك ذئب أغبر ولد ومعه قدرة من السماء. وزوجته كانت ظبية سمراء" ويبدو أن هذا النص استخدمه علاء الدين عطا مالك جوفايني حين جمع *كتابه "تاريخ فاتح العالم* *The History of the World Conqueror*" (ترجمة بويل، ١٩٨٥م). ثم لدينا التاريخ العالمي للطبيب الفارسي رشيد الدين الذي وضع في القرن الثالث عشر وترجمه بويل تحت عنوان *خلفاء جنكيزخان* *The Successors of Gengis Khan* (١٩٧١م). للاطلاع على تقويم لهذه الأعمال، انظر بارتهولد (١٩٢٨م: ص ص ٣٧-٥٨). فهذه النصوص الضخمة تشكل مصدراً محبطاً بالنسبة للمهتمين بالتاريخ الاقتصادي. ورغم وجود التسلسل الأسري، وتفاصيل الحملات، والحكايات الشخصية، والنزاعات بين الأسر، فإن الإدارة الداخلية لإمبراطورية المغول لم تلق اهتماما إلا عند رشيد الدين.

٤- لم تكن لعبارة "قبيلة" مضامين سيئة. فكلمة "اوردو ordu" المنغولية تعني الخيمة، ثم عممت لتشمل ولاء القبيلة (أو القبائل) لصاحب الخيمة، لذلك فإن كلمة "أوردو" يقصد بها أية قبيلة منغولية أو اتحاد قبلي.

٥- كان المماليك المحاطون باليابسة يخشون المحيطات على عكس الفاطميين البحارة الذين قدموا من ميناء المهدية التونسي. وعلى اعتبار أن المماليك من آسيا الوسطى (بيبرس ذاته كان كيبشيكيا) فقد كانوا يفضلون معارك الفرسان، ويرون في الموانئ موطئ أقدام للأعداء الأوروبيين يجب تدميرها. وبمجرد أن تم تخليص الساحل الفلسطيني من أيدي الصليبيين، كثف الأوروبيون من استعمالهم للطريق الشمالي من البحر الأسود عبر الأراضي المغولية.

٦- كلمة "المملوك" تعني في العربية "العبد". وظلت هذه الجماعة الحارس الإمبراطوري الخاضع للحاكم، على الرغم من ازدياد اعتماد الدولة على جماعة العسكر من الجنود المماليك حتى قبل العهد الأيوبي. ومع تزايد المتطلبات العسكرية، كان لا بد من تجنيد أعداد كبيرة من الجنود وبأساليب جديدة. أما المجندون الجدد فكانوا ممن يؤسرون وهم أطفال (أو على الأغلب يشترون كعبيد بواسطة التجار الإيطاليين في البحر الأسود) ويعتنقون الدين الإسلامي، ويربون على الطاعة العمياء في بيوت كبار المماليك المحررين، ويدربون على فنون القتال والإدارة. وقد حظيت هذه الجماعة من الإقطاعيين العسكريين بموارد من الفائض الزراعي الذي كانت تنتزعه من المقاطعات والأقاليم المخصصة لها؛ ومقابل مزارع الحليب هذه، كان قادة المماليك مسؤولين عن توفير عدد معين من الجنود. وليس من الحكمة التحدث عن دولة المماليك قبل استيلاء هذه الجماعة على السلطنة.

٧- أدت معارضة بيركه لحملات هولاكو على المسلمين إلى حرب بين الإقليمين المغوليين. وكان هذا العامل الذي أجبر والد ماركو بولو وعمه للاتجاه شرقاً إلى أراضي كوبلاي خان نظراً لتعذر عودتهما إلى القسطنطينية من مقر بيركه بسبب القتال (لاتام Latham، ١٩٥٨م: ص ٢٣). أضف إلى ذلك أن التحالف بين بيبرس وبيركه كان من الحالات الشاذة في التاريخ. فبعد وفاة بيبرس شغل بيركه منصب السلطان الاسمي للمماليك البحرية مدة ثلاث سنوات (١٢٧٧-١٢٨٠م) في مصر!